

الظاهرة الحضارية في القرآن الكريم

أ. د. عبدالحليم عويس



الظاهرة الحضارية في القرآن الكريم

من المعروف لدى علماء الحضارة أن الظاهرة الحضارية ظاهرة معقدة، وأنها ليست قرارًا سياسيًّا أو اقتصاديًّا تستطيع دولة من الدول - أو جماعة من الجماعات - إصداره لِيُصبح مؤهلاً للتحقيق.

إن كل ما يعمله الوحي الكريم - كحالة الإسلام - عندما ابتعث أمة من أعماق (الجاهلية الأولى)؛ ليجعل منها (خير أمة أُخرجت للناس)، أنه يختصر المسافة الزمنية إلى أقل قدرٍ ممكن.

لكنه - أي: الوحي - لا يمكن أن يتجاوز شروط الميلاد الحضاري، ولا مؤهلات الازدهار والبقاء، فهي سنن نفسية، تتكامل مع السنن الكونية والاجتماعية التي يُبصره الوحي بها من خلال الأُطر التاريخية السابقة المتعاقبة؛ ولهذا وجدنا الرسول محمدًا - صلى الله عليه وسلم - يتحمل كل المشاق في المرحلة المكية التأسيسية من رحلة الإسلام، والبالغة ثلاثة عشر عامًا حافلة بأقسى صور المعاناة؛ لينجز مهمة بناء عدد من المئات، يكونون مؤهلين للانتصار على كل عوامل الخور والضَّعف (الداخلية)، النفسية أو الاجتماعية، وعلى العقبات (الخارجية) التي قد تكبِّل صنَّاع الحضارة، من ولاء (للأرض) المعبأة بالكفر والضلال، أو للأهل والعشيرة، المربوطين بحبال الوثنية، المشدودين إلى المادية الأرضية.





وفي المرحلة المدنية كان هؤلاء (المهاجرون) النموذج الأعلى الذي التحَم به (الأنصار) - حبًّا وإيثارًا - في مرحلة جديدة في المدينة، قائمة على التأسيس السابق؛ ليبدأ المسلمون منها عبور المرحلة الفردية إلى مرحلة بناء الدولة والحضارة.



أجَل، إن ميلاد الحضارة لا يعني أن أمة ما قد ظهرت فجأة في التاريخ، فإن هذا الوجود التاريخي للأُمم إنما هو فِعل قدري بَحْت، لا يملِكه إلا خالق الوجود - سبحانه وتعالى - وإنما يقصد بميلاد الحضارة ظهور إرادة بشرية وجدت لديها عناصر الانطلاق والإبداع، فسعت إلى أن تقوم بدور حضاري، مستعلية على مجرد وجودها التاريخي الذي تشترك فيه معها سائرُ الكائنات النباتية والحيوانية.

إن هذا الوجود التاريخي هو وجود عام لا فضل فيه للإنسان، وهو لا يعتمد في استمراريته في المستوى الأدنى إلا على تعبير غريزي عن الحاجات الضرورية، يشبه أن يكون في مستوى التعبير للحيوان عن حاجاته، وأساليب الإنسان قد لا تختلف كثيرًا عن أساليب الحيوان في توفير هذه الحاجات والاستجابة لها.

أما الوجود الحضاري، فهو وجود مختلف تمامًا عن هذا الوجود؛ سواء في إطار (حاجاته)، أو في إطار (أساليب) التعبير عن هذه الحاجات والاستجابة لها، كما أن هذا الوجود يقوم بدرجة أساسية على الإنسان نفسه، فإليه - بإرادته ووعيه وحركته - يُعزى الفضل الأول في القيام بأية حضارة إنسانية.





* **والحضارة الإنسانية:** هي تعبير فطري عن حاجة إنسانية يتميَّز بها الإنسان على سائر الكائنات، ففي داخل كل إنسان - فردًا أو جماعة - حاجة تُلح عليه، وتؤكد له - عبر عدد من النوازع والسلوكيات - أنه شيء متميز عن الكائنات الأخرى، إنه يحس باختلافه عن مستواها، ويحس بأنه قادر على ما لا تستطيع هي أن تَقدِر عليه، ويحس بأنه يستطيع أن (يسموَ) لدرجة لا تستطيع الكائنات التي تشاركه في الأرض أن تصل إليها.

- ليكن هذا الشيء المتميز روحًا تُشعره بالعُلو، وبنفحة إنسانية خاصة.

- أو ليكن هذا الشيء عقلاً يعقل ويتَّسع لرؤية الماضي واستكناه المستقبل؛ حيث لا يستطيع غيره من الكائنات أن يمد الطرْف إلى الماضي أو المستقبل.

ليكن هذا أو ذاك، فالمهم أن (الحضارة) - أي: الاستعلاء فوق الوجود التاريخي - هو شيء فطري يحس به الإنسان في كِيانه الداخلي، ولعلي ألَمح هذا الشيء - بصورة ما - في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ} [الأحزاب: 72].

وفي قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: 165].

إن بناء الحضارة هو قرار إنساني يعتمد على الإنسان والفكر، ثم الأشياء، وبالتالي فصناعة الإنسان للحضارة - عندما تتوافر لديه الإرادة والوعي - تحتاج لثلاثة عناصر أساسية لا غنى لواحد منها عن الآخر:



1- إنسان: مؤهل للقيام بالدور الحضاري المطلوب، معد نفسيًّا وأخلاقيًّا لتحمُّل المسؤولية، ويدخل في عنصر الإنسان (الزمان) باعتبار الإنسان حقيقة زمانية، لا تنفصِّل عن الزمان، ووجوده وجود زماني بدرجة كبيرة.

2 - فكر: يقود خطوات الإنسان ويُلهمه ويدفعه إلى التضحية والإيثار، وقد يسمي بعضهم هذا الفكر بالعقيدة، ويسميه آخرون بالثقافة، أو الجانب المعنوي للحضارة.

3 - أشياء: يستطيع الإنسان أن يجدَ فيها المواد الخام المادية التي يبرز من خلالها فكره، وقد يسمي بعضهم هذه الأشياء بالجانب المادي في الحضارة، أو يطلق عليها بعضهم مصطلح (المدنية)، ويسميها بعضهم (بالأرض أو التراب)[1].

* وهكذا، فلا حضارة إنسانية إلا بهذه المنظومة الثلاثية[1]:

1- إنسان: **(كينونة وزمان)**.

2- وفكر: **(عقيدة وثقافة)**.

3 - وأشياء: **(التراب ورأس المال، وشتى العوامل المادية)**.

وهذه المنظومة بعناصرها الثلاثة تحتاج - لكي تبقى فاعلة ومؤثرة - إلى أن تتوازن النسب بينها، ويُعطى كل عنصر قدره في المرحلة التاريخية التي تمر بها الحضارة، ولا تسقط الحضارات؛ لأنها خلو من هذه العناصر، بل إنما تسقط الحضارات عندما تطغى نسبة عنصر على عنصرٍ، فعندما يُعبد الإنسان الفرد، ويصبح هو الهدف، وتصاغ الحياة

---

[1] انظر: مالك بن نبي؛ شروط النهضة فصل التراب.



– بوسائلها وأهدافها – من أجل استمتاعه، يقع الخلل، وأيضًا عندما يطغى الفكر، ويذوب الإنسان فيه على حساب (الإنسان) أو (الأشياء)، فيترك العمل، ويصبح الفكر لمجرد الفكر، ويريد بعضهم أن يصوم فلا يُفطر، ويقوم آخر فلا ينام، ويترهبن ثالث فلا يتزوَّج[2]، هنا يطغى تألُّق (الفكرة) وتُهدِّد الحياة بالخلل، ويجب تقويم الميزان، وتحقيق العدل بين العناصر.

ومن الغريب أن أحد المفكرين المعروفين أنشأ كتابًا أسماه (التفسير القرآني للتاريخ)[3]، ومع ذلك فإنه لم يتكلم في كتابه هذا إلا عن عنصر واحد هو (الأشياء)، فتحدَّث فقط عن الجوانب المادية؛ من أرض واقتصادٍ، وثروة وعمل، ورأسمال وتنظيم وتخطيط، وسياسة زراعية، وتجارة وادِّخار واستثمار، وموضوعات فرعية تتصل بها، والمعروف أن هذا المفكر **الدكتور/ راشد البراوي** كان له شرف ترجمة (رأس المال)؛ لكارل ماركس إلى العربية، فضلاً عن كتب أخرى تدور كلها حول (الاقتصاد)، والمذاهب الاشتراكية، والقاموس الاقتصادي، إذا عرفنا هذا ندرك – مع أننا قد نبرِّئ الرجل من الفكر الاشتراكي العلمي – أنه قد يضيع (الإنسان) ويضيع (الفكر والمعتقد)، وتطغى (الأشياء) في الفقه الحضاري حتى لدى مفكرين من أمثال هذا المفكر الكبير!

إن الحديث عن الآيات القرآنية التي تحث على الزراعة، أو التجارة، أو الصناعة، إنما هو حديث في التفصيلات والتطبيقات، والثمار الحضارية، لكن عناصر إبداع الحضارة ليست هي هذه

---

[1] انظر بتصرُّف: مالك بن نبي؛ ميلاد المجتمع.

[2] إشارة إلى الحديث الشريف المعروف.

[3] للدكتور/ راشد البراوي، نشر دار النهضة العربية، القاهرة ط2/ 1976.



(الماديات) التي تنشأ تلقائيًّا، وتَزدهر في الطور الثاني للحضارة، حين تتجاوز الحضارة مرحلة الميلاد والتكوين، وتُزيح كل أخطار الميلاد، وتقف على أقدامها فَتيَّة قويَّة، وتبدأ في إفراز بعض قوتها من خلال عدد من المجالات الاقتصادية والمادية.

وعند توافر عنصر الانطلاق لأمة من الأمم في طريق التحضر، حتى ولو كانت الأمة ذات سابقة حضارية، فإن عليها أن تهتمَّ بتوفير العناصر الثلاثة الأساسية، محافظةً على الترتيب والنِّسَب حتى تضع قطارها أولاً فوق القضبان الصحيحة، ففي الآية القرآنية التي تقول: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97].

يوجد (الإنسان) الذي (يعمل صالحًا) وهو مؤمن (بالعقيدة والفكرة)، فمثل هذا الإنسان العامل (كل صالح مادي أو عقلي أو روحي) عن إيمان ومنهج وفكرٍ، هو الإنسان الذي يستطيع أن يصل إلى الحياة الطيبة اللائقة بالإنسان.

ولقد تحدث القرآن عبر مئات الآيات، كما تحدثت السُّنة الشريفة عن تفصيلات العناصر الثلاثة، وكيفية الوصول إلى الوضع الصحيح لكلٍّ منها:

1- الإنسان في القرآن:

أما العنصر الأول وهو (الإنسان)، فقد حظِي بكثيرٍ من الاهتمام من القرآن ومن سُنة الرسول (الفعلية) (بخاصة)؛ حيث عاش الرسول جزءًا كبيرًا من فترة رسالته يبني هذا الإنسان، ويصنعه في مكة، ثم في المدينة، حتى تكوَّن أفضل جيلٍ عرَفته البشرية على الإطلاق.





ويُبين القرآن الوظيفة الحضارية المنوطة بالإنسان على الأرض، فيقول: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: 30]، ويقول: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [النور: 55].

إن هذا الإنسان المخلوق {مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ } [الطارق: 6 - 7]، هو الإنسان الذي كرَّمه الله واختاره لصناعة الحضارة: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: 70].

إنه هو نفسه الذي سجدت له الملائكة: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ} [البقرة: 34].

وهو الذي تعلم الأسماء كلها: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: 31]، وهو الحر الذي يختار طريقه بإرادته: " {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: 10]، {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} [البقرة: 148].

على أن الإنسان - بالرغم من كل هذه المكانة التي أعطاها له القرآن، ومن كل الأسلحة التي زوَّده بها - لن يستطيع الإسهام الصحيح في فعلٍ إيجابي وخالد، إلا إذا حافظ على عبوديته لله والالتزام بمنهجه: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: 4]، فإذا ارتكس وسار في طريق الانحراف والضلال، فإنه يهبط إلى أسفل سافلين: { ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [التين: 5]، ومن هنا فإن القرآن في تقويمه للحياة الإنسانية، يُقيم نظرته على دعامتين توازن كل



منهما الأخرى؛ حتى لا ينحدر الإنسان إلى حَضيضها، وينهك قواه في أشيائها، فالحياة الدنيا في جانب {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [محمد: 36]، {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء: 77]، {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} [الكهف: 45]، لكن هذه الدنيا في جانب آخر: {وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص: 77]، {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: 97].

والحقيقة أن كلاًّ من الجانبين يقوم بمثابة الروح التي تبعث الحياة في الجانب الآخر، فكل منهما عندما ينفصل عن الآخر ويصبح بمعزلٍ عنه، يغدو باطلاً من الأمر وخارجًا عن معنى الحياة وحقيقتها[1]، فضلاً عن أن فِقدان أحد الجوانب لنسبته يزيغ بصيرة الإنسان ويُضل خُطواته على درْب الفعل الحضاري الرشيد.

2- الفكرة أو المنهج:

إن المعالم الواجبة التحقق في الفكر المبدع للحضارة، معالِمُ كثيرة، وأهمها هي (إيجابيته) وحركته (ديناميكيَّته)، فالفكر السكوني السلبي أو الانعزالي، لا يصنع حضارة مهما كانت أخلاقيَّته أو مثاليَّته.

---

[1] د. محمد سعيد رمضان البوطي؛ منهج الحضارة الإنسانية، ص73، بيروت.



وهذا الفكر من أبرز واجباته أن يقدم تقنينًا سليمًا لعلاقة الإنسان بمبدع الكون، ثم يقدم تفسيرًا لعلاقة الإنسان بالكون، ولعلاقته بأخيه الإنسان، فثمة مهام محددة للفكرة الحضارية المؤهلة لإطلاق طاقات الإنسان نحو فعلٍ حضاري حركي إيجابي؛ أهمها بإيجاز:

أ - **تقديم تفسير لعلاقة الإنسان بالإنسان (تشريعيًّا وأخلاقيًّا)**: وتعتبر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن العقدية الإسلامية والشريعة والأخلاق - وهي تستغرق حَيِّزًا كبيرًا - موجهة لتغطية هذا الجانب.

ب - **تقديم تفسير لعلاقة الإنسان بالكون**: وهل هي علاقة تسخير إذلالي، أو هي علاقة تسخير فطري ودود، كما هي وجهة النظر الإسلامية؟ فالكون قد هيَّأه الله أصلاً لِيُسخره الإنسان، وأعطاه العقل القادر - بعون الله - على التسخير.

جـ - **تقديم تفسير لعلاقة الإنسان بخالق الكون، وواجبات الإنسان نحو خالقه، وكيف يحقق عبوديَّته له**: ويمثِّل جانب (العبادات) والشروط المطلوب توافرها في (المعاملات)، وتوجيه (المعاملات) - أي التعاملات الدنيوية - إلى حيث يرضى الله ويحب، يُمثل هذان الجانبان أبرز الوسائل لأداء الإنسان واجبَه نحو الله.

إن قيمة (الفكرة) المطروح في المصادر الإسلامية الأصلية، لا نستطيع التعبير عنه - بتفصيل - في هذا البيان الوجيز، فهو مما يحتاج إلى بحثٍ خاص، لكننا نقول: إن مرحلة الفكرة هذه عنصر أساسي في مرحلة الحضارة، والأفكار المطروحة قادرة على القفز بالأُمم من كل مراحل السقوط، وعندما تسقط الحضارة في دورة من التاريخ، وتكون الأفكار سليمة



وموجودة – على النحو الذي تتكفَّل به المصادر الإسلامية – فإن إمكانية قفْز الأمة من جديد يكون أمرًا ميسورًا، مهما كانت ضآلة الأشياء التي تَملِكها، ومهما كانت خسائرها – إبَّان مرحلة السقوط في عالم الأشياء – فالأفكار هي الرصيد المخزون الذي يبقى للأمة عندما تفقد الأشياء.

لقد كانت الفكرة الإسلامية هي التي أطلقت قطار الحضارة الإسلامية، وضمنت له الاضطراد في التاريخ، وكان الإنسان المسلم المعبأ بهذه الفكرة عن يقين جازمٍ، والذي يحس بأنه مبتعث بها في التاريخ؛ ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله؛ (كما قال رِبعي بن عامر في وجه رُستم)، كانت الفكرة وكان إنسانها هما اللذان أنجزا ميلاد الحضارة الإسلامية، "ولقد واصل المجتمع المسلم – بالفكر – تطوُّره، وأكمل سَبْك روابطه الداخلية، بقدر امتداد إشعاع هذه الفكرة في العالم"[1].

ولقد مرَّت بالأمة الإسلامية هزائمُ كثيرة، وتعرَّضت لصنوف من الاحتلال التتري والصليبي والاستعماري، لكنها استطاعت تجاوز المحنة بفضْل الفكر الذي كان يقودها، ومن هنا تبدو خطورة (غزو الأفكار) – بواسطة التنصير والشيوعية واليهود – في العالم الإسلامي، وهو ما عمد إليه الاستعمار بعد أن أدرك خطأه في الغزوات العسكرية التي لم يكسب منها شيئًا، إلا ما تعلَّمه في جامعات المسلمين ومدارسهم – وهو يغزوهم أو يحاربهم – ورجع به إلى بلاده، فالأفكار هي الرصيد الصحيح الذي تلجأ إليه الأُمم، وهي الوقود المخزون في الباطن والأعماق إذا انتهت البضائع من أسواق (الأشياء) في مراحل الاستهلاك أو الاستنزاف الحضاري!



3 – الأشياء وقيمتها الحضارية:

إن قيمة الأرض في الإبداع الحضاري قيمة لا تنكَر، فهي مناط الزراعة، وهي مناط الرعي، وهي – بدرجة ما – مرتبطة بالتصنيع، وبقدر ما يستطيع الإنسان استغلال الأرض الاستغلال الأمثل، وتطوير عطائها وتوجيهه، بقدر ما يستطيع إبداع حضارة إنسانية موجهة.

وأمامنا أمثلة حية في عصرنا؛ حيث تقهر الحضارة في ميلادها، وفي دورتنا الحالية في التاريخ – بتأثير القهر الاستعماري الأمريكي الذي يفرض على السودان وعلى مصر وغيرهما عدمَ زراعة القمح بصورة تكفيهما، أو تكفي للتصدير، وتبقى الأرض في بلاد كثيرة في العالم الإسلامي في مرحلة بدائية الاستغلال، في حين يزرع الياباني الأراضي التي فوق الجبال، وفي الوقت الذي يزرع الشخص الأمريكي وحْده ألف هكتار – تحرم الأمم المستعمرة (وإن حملت اسم الاستقلال) من تطوير زراعتها، ويستأجر الاستعمار رجالاً يضمنون الحفاظ على تخلفها، ويضمنون أيضًا إجهاض الفكر وإنهاك الإنسان.

لقد حوى القرآن وجاءت السنة بمئات الآيات والأحاديث التي تحث على (العمل) وعلى استغلال الأرض، وعلى الصيد والزراعة والصناعة والتجارة.

{وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} [المائدة: 2]، {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [النحل: 5].

{أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا} [النازعات: 31]؛ (أي: الأرض).

---

[1] انظر بتصرُّف: مالك بن نبي؛ شروط النهضة، ص68، طبع بيروت.





{الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا} [يس: 80]، {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} [الحديد: 25]، {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [النحل: 14]، {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} [هود: 37]، {ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} [هود: 41]، {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ} [القمر: 13، 14].

{وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [النحل: 80]؛ (أي: أصواف الأنعام).

{وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ} [الغاشية: 16]، {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [الحج: 23].

{وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ} [الإنسان: 15].

{وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} [النحل: 81].

{مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} [الكهف: 31].

{أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ} [آل عمران: 49].

{وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ} [الرحمن: 10 - 11].

{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} [لقمان: 20].





{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} [الحجر: 19، 20]، (رواسي: هي الجبال).

{وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى} [الأعلى: 4، 5].

{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا} [النازعات: 30، 31].

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} [النحل: 10].

ولعل حديث الرسول الكريم: ((إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة، فليَغرسها)) - من أقوى الأدلة على احترام الإسلام لاستغلال الأرض وعالم الأشياء الموجهة للخير، والمتناسقة مع حاجات الإنسان وأهدافه من الحياة.

وعندما يُزَهِّد الإسلام في الدنيا - في بعض الآيات كما ذكرنا - ويجعلها (متاع الغرور)، فإنما يوجه الإنسان إلى أن يبقى هو القائد للأشياء، والموجِّه لها، ولا يصبح موقعه منها مثل موقع الإنسان المعاصر من التكنولوجيا التي أصبَحت تقوده إلى المجهول؛ (كما يوضح رينيه دوبو في كتابه (إنسانية الإنسان)، وبالتالي تختل النسبة بين الإنسان والفكرة والأشياء، ويقع الانهيار.

- ومن الغريب الجدير بالذكر أن عوامل ميلاد الحضارة أو بنائها، هي كذلك عوامل سقوطها، فعندما ينحل الإنسان ويفقد الرؤية، يتحوَّل هو نفسه (بالظلم أو بالترف أو بهما)، إلى عامل هدمٍ لنفسه ولمجتمعه وحضارته، وكذلك تتوارى الفكرة الصائبة، وتحل محلها الفكرة النفعية التبريرية، وفي النهاية تطغى الأشياء وتُصبح هي السِّمة الحضارية الطاغية، بل ينظر إليها



من خلال مظاهر الترف والاستمتاع على أنها هي الحضارة، بينما هي في هذه المرحلة وبهذا الطغيان السرطان الذي دخل إلى جسم الحضارة.

سقوط الحضارة من منظور إسلامي:

دائمًا تسقط الحضارة من داخلها، إن الغزو الخارجي إنما يأتي كما تأتي العاصفة، لا يقتلع إلا الأشجار التي لا جذور لها، أو التي تمتد جذورها امتدادًا هشًّا، أو التي تتمتع بجذور قوية، لكنها مريضة الجسم، فينكسر الجسم وقد تبقى الجذور مؤهلة - بعد ذلك - لبناء جسمٍ آخر، والبروز مرة أخرى.

والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، عندما يتحدثان عن سقوط الحضارة، يركزان على هذا التداعي الداخلي الذي هو العامل الأول والجوهري في سقوط الحضارات.

إن المهمة التي تقوم بها (الذنوب) - أي: الفواحش والآثام؛ سواء على مستوى الفرد، أو الجماعة - إنما هي تمزيق الانسجام بين خلايا المجتمع، ولا تكثُر الذنوب والآثام والمُوبقات إلا يوم يختل تصوُّر الأمة وينحرف منهجها.

إن أخطاء الطائعين مقبولة، وهي تدور في المستوى البشري المعهود، والناس على امتداد تاريخهم ليسوا ملائكة[1]، فتاريخهم تاريخ بشر، وفِعلهم فعل بشري قابل للصواب والخطأ، و لم توجد جماعة بشرية دون أخطاء، والمعادلة التي نحب تأكيدها من خلال التصور القرآني أن كثرة الفواحش والآثام تأتي (نتيجة) - أو مرحلة ثانية وسطى - في مراحل السقوط

---

[1] خصوم الحضارة الإسلامية يحاسبون جيل الصحابة والتابعين، وكأنهم ملائكة لحاجة في نفوسهم، والصحابة والتابعون بشر يجتهدون وقد يخطئون في التطبيق، ويختلف بعضهم مع بعض، وكلهم مُثابٌ على اجتهاده.



الحضاري، وهي ليست السبب الأول أو المرحلة المتقدمة، أما الأخطاء العادية البسيطة، فهي ضحية وليست من باب التراكم الذي يؤدي للسقوط.

المرحلة الأولى: فساد الفكر:

* ففي البداية يكون فساد الفكر واختلاف العلاقة بين الإنسان والناموس الكوني؛ سواء كان الاختلاف في علاقته بخالق الكون، أم في منهج علاقته بالكون والإنسان، وانحرافه عن الحق والكمال والخير.

إن كل التجارب الحضارية تؤكِّد لنا عبر تطوُّرها أن ثمة درجتين للانحطاط:

الأولى: درجة الانقلاب النفسي والذهني إلى الأدنى.

والأخرى: هي درجة الانقلاب العملي والخلقي، بناءً على الانقلاب الذهني والنفسي المتدني، فالتغيير الداخلي (فكريًّا ونفسيًّا)، هو المرحلة الأولى في أي سقوط، كما أن تغييره إلى الأعلى والأزكى هو المرحلة الأولى في أي تقدُّم، إن فساد الفكر والنفس هو البيئة التي تنمو فيها جراثيم الانحطاط الأخلاقي.

ويتحدث القرآن عن مرحلة (الانهيار الفكري)، (والظلام العقدي)، فيقول:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: 6، 7].

فهي مرحلة (انغلاق فكري) و(فساد منهج).

ولعل الآيات التالية توضِّح هذه الحقيقة الحضارية على نحو أكثر مباشرة، تقول الآيات:

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} [النحل: 112، 113].

وتقول آية أخرى:

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف: 96].

وفي آية أخرى يوضح القرآن مرحلة (الفكرة) كمنطلق للحياة على الأرض، وقيام حضارة (على أساس المنهج القويم)، وسقوط أخرى (على أساس الانحراف الفكري):

{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: 123، 124].

وقد يأتي الضلال الفكري عن طريق اتِّباع الطواغيت من الأصنام البشرية أو المذاهب الفكرية المنحرفة أو المترفين: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [الأحزاب: 67، 68].

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [سبأ: 34].

* وتُقدِّم لنا السنة النبوية عددًا من الآثار التي تتصل بهذه المرحلة الأساسية في سقوط الحضارات؛ حيث ينغلق الفكر، ويختلط الحق بالباطل، وينتشر الكفر العقلي والانحراف العاطفي، ويسود الهوى، وتروج النظريات الفاسدة، ويتحزب الناس أحزابًا بين أدعياء دجَّالين،



ويحسب كل منهم أنه على الحق، وتُزيَّن لهم أعمالُهم، وتختلط الأوراق، وتضيع المعالم الكبرى في المسيرة الحضارية.

ففي حديث أبي هريرة يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: ((والذي نفسي بيده، ليأتينَّ على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتَل، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتِل))[1]، وفي حديث جرير أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقابَ بعض))[2].

والكفر هنا كفر فكري - أي: ضلال وانحراف - وقد يظن صاحبه معه أنه مسلم، أو أنه على الحق، مع أنه يرتكب الكبائر، وينتهك أساسيات الإسلام، ولربما يفعل ذلك باسم الإسلام!

قال حذيفة: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أُشربها، نُكِت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكَرها، نُكِت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مُجخِّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا يُنكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه))[3].

وعن أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة

(1) رواه مسلم.
(2) رواه مسلم وابن ماجه.
(3) صحيح مسلم، كتاب 1، باب 65.



معروضة بعد))[1]، وهكذا فعندما يضيع معنى (الإيمان)، ويتبدَّد توهُّجه، وتخبو أنواره، ويقع الغبش في العقل والقلب، هنا - فقط - تتسلل الذنوب في غيبة حاجز الإيمان، فيزني الزاني، ويسرق السارق!

وقد روى ابن ماجه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خط خطًّا، وخط عن يمينه خطين، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط، فقال: (هذا سبيل الله)، ثم تلا هذه الآية: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: 153][2].

وفي مرحلة التيه الفكري هذه تظهر طبقة من المثقفين المضلين (المتشدقين)، الذين يخدعون الناس بنوع من الكلمات المبهمة، ويقودونهم - بهذه الكلمات الرمزية والشعارات المدوية - إلى الهاوية؛ فعن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك - رضي الله عنهما - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((سيكون في أُمتي اختلاف وفرقة: قوم يحسنون القيل ويُسيئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تَراقيهم، يَمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه، هم شرُّ الخلق والخليقة، طوبى لمن قتَلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، مَن قاتَلهم كان أولى بالله منهم))، قالوا: يا رسول الله، ما سيماهم، قال: ((التحليق))[3]، (التحليق: هو إخراج الكلام من الحلق تشدُّقًا).

---

(1) صحيح مسلم، كتاب 1، باب 24.

(2) سنن ابن ماجه، باب اتِّباع سنة رسول الله.

(3) سنن أبي داود: كتاب السنة ص123، الطبعة الأولى عام 1394هـ دار الحديث، حمص ـــ سوريا.



وعن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: ((إن الله - عزَّ وجل - يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلُّل الباقرة بلسانها))[1].

وفي الحديث الذي رواه أبو داود يأتي قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: ((إن ربي زوى لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن ملك أُمتي سيبلغ ما زوى لي منها، وأُعطيت الكنز الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأُمتي ألا يُهلكها بسنة بعامة، ولا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم (جماعتهم)، وإن ربي قال لي: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يُرَد، ولا أهلكهم بسنة بعامة، ولا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها، أو قال بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، وحتى يكون بعضهم يَسبي بعضًا، وإنما أخاف على أُمتي الأئمة المضلين، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى تَلحق قبائل من أُمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، إنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون يزعم كل منهم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرُّهم مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله))[2].

---

(1) سنن أبي داود، 274/5، من كتاب الأدب، باب ما جاء في التشدق في الكلام، والمتشدقون هؤلاء من عناصر الإضلال الفكري، يحسبهم الجاهل مثقفين من التشدُّق، وهم جهلاء لا خلاق لهم!

(2) سنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم، 451/4، وقد أورد الترمذي حديثًا مختصرًا عن ظهور دجَّالين كذابين قريب من ثلاثين، ومعروف أن القيد بالثلاثين لمجرد الكثرة لا الحصر.



روى ابن ماجه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ستكون فتن يُصبح الرجل فيها مؤمنًا، ويمسي كافرًا، إلا من أحياه الله بالعلم))[1].

وروى ابن ماجه أيضًا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((كيف بكم بزمان يوشك أن يأتي، يُغربل الناس فيه غربلة، وتبقى حُثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، فاختلفوا وكانوا هكذا؟ وشبَّك بين أصابعه))، قالوا: كيف بنا يا رسول الله إذا كان ذلك؟ قال: ((تأخذون بما تعرفون، وتَدَعون ما تنكرون، وتقبلون على خاصَّتكم وتَذرون أمر عوامكم))[2].

ويُغربل الناس غربلة؛ أي: يذهب خيارهم وعقلاؤهم، ويبقى أشباه مثقَّفيهم وحمَلة الشهادات بلا معلومات، الذين يستعملون المعميات والرموز تَعميةً على الناس.

وروى ابن ماجه أيضًا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا، فطُوبى للغرباء))[3]؛ (حيث يسود الفسَقة في معظم الأنحاء، ويحسُّ الأتقياء بأنهم شواذٌّ في مجتمعهم، ولا يصل إلى المناصب إلا مَن يبيعون ضمائرهم، ويكونون مع رئيسهم أشبه بالتلاميذ في حضرة أستاذهم).

(1) السنن، ج2، كتاب الفتن: باب ما يكون من الفتن، ص1305، وقد أورده البخاري بلفظ آخرَ.
(2) السنن، ج2، كتاب الفتن باب التثبيت من الفتنة، ص1307.
3 السنن، ج2، كتاب الفتن: باب بدأ الإسلام غريبًا، ص1319.





وروى ابن ماجه أيضًا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن بني إسرائيل افترَقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة، وهي الجماعة))[1].

إنه التخبُّط الفكري والجدل العقيم، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، وكأن التفرق هو الأصل، والتوحد هو الشاذ لغياب القاعدة الفكرية الواحدة.

روى ابن ماجه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ذَروني ما تركتكم، فإنما هلك مَن كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيءٍ، فخُذوا منه ما استطعتُم وإذا نهيتُكم عن شيء، فانتهوا))[2].

وروى ابن ماجه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: "سيأتي على الناس سنوات خدَّاعات، يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة))[3].

وهكذا يقف أئمة الضلال ومحترفو الجدل قادةً لمرحلة الضياع الفكري، ويُؤازرهم المنافقون المتشدِّقون الذي يستخدمون علمهم في تبرير الأوضاع والْتِماس الأعذار للسقوط والساقطين، وفي تحريم الحلال وإباحة الحرام، وخلْط الحقائق؛ حتى لا تكاد جمهرة الأمة تعرف المعروف من

---

(1) السنن، ج2، كتاب الفتن، باب: بدء افتراق الأمم، ص1322.

(2) السنن، ج1، باب اتِّباع سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ص3.

(3) السنن، كتاب الفتن، باب شدة الزمان، ط2، ص 1339، وما أكثر التافهين الذين ينطقون في عصور التخلف والسقوط.



المنكر، ويتصدر هؤلاء الساحات المختلفة، وميادين العمل المتقدمة، فيحجبون الحق، ويظهرون الباطل، وتزوى النماذج الصالحة، وتتألَّق النماذج الهابطة جاهًا وسلطانًا ومالاً، وتُغدق عليها الأموال والألقاب والمناصب، فلا يكاد ينفذ أصحاب الحق إلى الحق، ولا يكاد القابضون على الأمر يحسون بما يعانيه أهل الحق القابضون على الجمر، وتنقطع الجسور بين أولي العلم وأولي الأمر، فلا يبقى إلا الصراع الخافت والظاهر، وتتعرَّض السفينة الاجتماعية كلها للضلال والضياع.

إن التمزُّق الفكري الداخلي للأفراد أو الأمم، هو أول داءٍ تُصاب به، وعن طريق هذا الخلل الفكري، تدخل صنوف الخلل السلوكية نتيجة حتمية لخلل الفكر؛ لأن سلامة الفكر هي الضامن لسلامة السلوك، وهي السور الذي يحجز ويمنع، أو كما يقول أحد الفلاسفة: (إذا لم يكن الله موجودًا، فكل شيء مباح).

ولن تستطيع الحواجز القانونية أو عوامل التخويف الأخرى، أن تقف طويلاً أمام عواصف الغرائز، بل إن هذه القوانين البشرية سوف تضعف وتضعف لدرجة أنها - في مرحلة من المراحل - لن يكون لها عمل إلا أن تبرر الفساد وتقنِّنه، بل وتجعله حقًّا من حقوق الفرد، وتعبيرًا من تعبيراته عن حريته (الحيوانية)!



المرحلة الثانية: فساد السلوك:

إن الآيات القرآن حاسمة الدلالة في ترتيب السلوك السيِّئ على الفكر السيِّئ، كما أنها حاسمة الدلالة على أن شيوع الآثام، ليس سببًا، وإنما هو (عقوبة) يصيب الله بها الأُمم والأفراد تمهيدًا لأخذها وهلاكها.

إنه الاستدراج الإلهي الذي يحقِّق الله به ناموسه الكوني في ألا يأخذ الناس بظلم وهم مصلحون، ولا يأخذهم إلا بعد أن يُمتِّعهم بنصيبهم المقدر من المُتعة؛ حيث تتاح الفرصة لمن يريد أن يتمادى، وتعميه فرص المتعة المتاحة، وتتاح الفرصة أيضًا لمن يُبصر من وراء الحُجب - المادية والاجتماعية - الحقيقة الأزلية، فيؤوب إلى رشده، ويعود إلى الحق قبل اللحظة الفاصلة.

إن القرآن يُجيبنا بوضوحٍ على (السبب الأساسي) لظهور الفساد في الأرض، يقول: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41]، فبسبب ما كسَبه الناس من جنوح عن العَدل ومَيل إلى الظلم، انتشرت موجات الفساد والانحراف عقوبةً لهم، تمهيدًا للساعة المرتقبة.

وتقول لنا آية أخرى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الأنفال: 53].

وتقول آية ثالثة: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: 16].



والسؤال الوارد هنا: لماذا يريد الله إهلاك القرية؟ والإجابة: إن أهلها – بالضرورة – قد أصبحوا أهلاً لإرادته تلك بما استوجبوه من ضلال في فكرهم، وتبرير لترَفهم، وشعور منهم بأنهم إنما أُوتوا ما أعطاهم الله على علمٍ عندهم؛ (كما هي فلسفة قارون)، وليس بفضل الله وعونه، أو كما توضِّح آية قرآنية أخرى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [سبأ: 34]، فهذه هي عادة المترفين في التاريخ، إنها مواجهة الهداة (بالكفر)، وعند ذلك يَستدرجهم الله إلى المرحلة الثانية، وهو (الفسق) الذي ولَغوا فيه معتمدين على الأموال والأولاد التي يَملِكونها: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ: 35]!

وذلك دون استفادة من دروس التاريخ الماضية، فضلالهم الفكري يعميهم عن رؤية كُبريات الحقائق الكونية والتاريخية:

{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [الأنعام: 6].

وفي آية أخرى يكرِّر القرآن المعنى نفسه مقدرًا مُعطيات جديدة: {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ



هُمُ الْخَاسِرُونَ} [التوبة: 69]، وهذه الآية تعالج بإيجاز المعالم الكبرى لمرحلة (الفسوق)، وما يَعتورها من فِتنٍ وأخلاق، ومن ثَمَّ تنتهي إلى المصير الحتمي الذي يؤول إليه أمر هذه المرحلة، وهو الإحباط الكامل، والخُسران الدائم.

ويقدم لنا (القَصص القرآني) - الذي لم يَفقهه المسلمون الفقه الحضاري الكامل - عددًا من التجارب البشرية التي دخلت مسيرتها إلى مرحلة (الذنوب)، فكانت عاقبتها وخيمة.

فقوم نوح: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا} [نوح: 25]، وحتى ابنه أصابه الغرق؛ لأنه {عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} [هود: 46].

وعاد - قوم هود - أصابهم الريح العقيم حتى صاروا موتى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية؛ لأنهم: {جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [هود: 59].

وثمود - قوم صالح - أرسل الله عليهم الصَّيحة بسبب عِصيانهم أمْر نبيِّهم وعَقْرهم الناقة خلافًا لأمره: {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [هود: 65 - 67].

وجريمة قوم لوط التي عُرِفوا بها معروفة، وهي من الخبائث المنكرة التي لا تليق بالجنس البشري، بل إن الحيوانات تعف - بفِطرتها - عنها، وقد أثبت الطب الحديث الآثار المدمرة لهذه الجريمة، وعلى رأس آثارها الصحية مرض (الإيدز)؛ أي: فِقدان المناعة الجسدية، أما أمراضها الحضارية



- اجتماعيًّا وأخلاقيًّا - فهي لا تقل خطورة عن (الإيدز)؛ إذ هي تفقد الحضارة مناعتها - أيضًا - في تحمُّل أعباء صناعة الحضارة، وفي خلْق (الرجولة) و(الجد) اللازمَين للبناء؛ يقول القرآن عن قوم لوط: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ} [هود: 78]، {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود: 82 - 83].

وأما مَدْيَنُ - قوم نبي الله شعيب - فقد ابتُلوا بذنبٍ آخر، لقد كان دَأْبهم بَخْس الناس أشياءَهم، ونقْص المكيال والميزان، وهو ظلم مبين، وقد حاول شعيبُ إصلاحهم، لكنهم رفضوا، فحقَّت عليهم عقوبة الله: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ} [هود: 94، 95].

وكانت عاقبة فرعون وأتباعه الغرقَ؛ لكفرهم، وانغماسهم في المعاصي.

ويعقِّب القرآن على هذه الأمم وما أصابها، بعد أن تَسردها علينا سورة هود في إيجاز وتعاقبٍ تاريخي بليغَين، يعقب القرآن (بالعبرة) العامة التي انتهت بهذه الأُمم وتجاربها إلى نهاية واحدة، هي السقوط في هاوية الهلاك الشامل والدمار الكامل؛ يقول القرآن: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: 100 - 102].



إن السلوك الأخلاقي المنحرف هو طريق الانهيار الحضاري، وليس الضَّعف المادي أو (التقني)، فالأخلاق القائمة على أساس عقَدي وفكري سليم - وليست الأخلاق النفعية (البرجماتزم) - هي الطريق الصحيح للحضارة، ولقد أشار العلامة ابن خلدون إلى هذا الأمر، وذكر أن رُقي الأمم لا يتحقق بتوافر القوة المادية، أو رقي العقل (العلمي أو العملي غير المرتبط بفكرة أخلاقية)، بل بتوافُر الأخلاق الحسنة[1].

- ويوضِّح الفيلسوف (غوستاف لوبون) قيمة المعيار الأخلاقي، فيقول: "إن الانقلاب يحدث في حياة الأُمم بالأخلاق وحْدها، وعلى الأخلاق يؤسِّس مستقبل الأمة وحياتها الحاضرة، وحظ العقل والقلب في بقاء الأمة أو سقوطها قليل جدًّا، وعندما تذوى أخلاق الأمة تموت مع وجود العقل والقلب، اللذين ربما يكونان متقدمين في نواحٍ عملية كثيرة، فعلى الأخلاق وحدها يقوم نظام الجماعة الإنسانية، وهي - أي الأخلاق - أساس الدين"[2].

وقد ساق الدكتور لوبون عددًا من الأمثلة لبيان تأثير الأخلاق في قيامها أو سقوطها، من بينها حال الأمة الرومانية التي سقطت وهي أقوى من أسلافها في الناحية العقلية، إلا أنها أضعف في النواحي الأخلاقية.

---

(1) المقدمة.

(2) السنن النفسية لتطوُّر الأمم؛ ترجمة عادل زعيتر بتصرُّف، (فصل الأخلاق).



وأيضًا فقد استطاع الإنجليز بجيش قدره ستون ألفًا استعبادَ ثلاثمائة مليون هندي لاستقامة أخلاقهم (فيما بينهم فقط!!)، مع أن كثيرًا من سكان الهند كانوا يُشبهون الإنجليز في النواحي العقلية، بل كان البعض يرجِّحهم في المباحث الفلسفية[1]، (بل والدينية).

وقد نسى (لوبون) أن يقدم النموذج الإسلامي الذي قضى على الروم وفارس، و لم يكن له من سلاح في النصر إلا إيمانه ورسالته الأخلاقية، أما حالته العقلية – (أي: التقدم المادي والفنِّي) – فلم يكن يصل إليهم بالتأكيد.

ويذكر لنا أحد علماء الهند[1] الأفاضل الفرق بين الأخلاق التي يقصدها (غوستاف لوبون)، وبين الأخلاق الإسلامية، فالأخلاق القرآنية التي يريد الإسلام إحداثها في الأمة، لا ينحصر أثرها في نطاق تلك الأمة، بينما تُعامل الأُمم الأخرى بوحشيَّة، بل على الإنسانية العامة والرحمة الشاملة.

* وفي هذه المرحلة – مرحلة (الذنوب والفسوق) – كثيرًا ما تكون هناك فسحة من الزمان؛ كي تُعطى الأمة أو الجماعة فرصةَ الرجوع إلى الحق، وتعالج أسباب انهيارها، فإذا ظهر أنها وصلت إلى مرحلة الانغلاق الكامل، والطمس على القوى الواعية فيها، واختلاط المعايير في أيديها، فقد تُعطى فرصة أخرى استدراجية؛ لتقع أكثرَ في الأوحال، وتستحق الأخذ الأليم الشديد.

---

[1] المكان السابق.



ويعبر القرآن عن هذه الحالة، يقول الله تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً} [الأنعام: 44]، ويقول أيضًا: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [آل عمران: 178].

{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [الأنعام: 6].

وتتميز سلوكيات هذه المرحلة ببعض الأخلاقيات المسيطرة على الناس.

* فمن أخلاقيات هذه المرحلة (عدم التفرقة بين الحلال والحرام)، "يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن الحلال أو من الحرام"[2].

* ومن الأخلاقيات السائدة (محاباة الكبار)، وعدم خضوعهم لشريعة الله العادلة، وكثرة الوساطات والرشاوى: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ"[3].

* ومن الأخلاقيات السائدة (التجرؤ على الفتوى) في دين الله بلا علمٍ ولا هدى: (يأتي آخر الزمان قوم حُدثاء الأسنان، سُفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يَمرقون من الإسلام كما يَمرق السَّهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرَهم)[4].

---

(1) محمد تقي الدين الأميني: كتاب رقي الأمم وسقوطها.

2 رواه البخاري، كتاب البيوع.

3 رواه البخاري، كتاب بدء الخلق.

4 البخاري، باب علامات النبوة.



* ومن أخلاقيات هذه المرحلة العكوف على (وسائل الترف)، واستحلالها: "ليكوننَّ من أُمتي أقوام يَستحلون الحِر والحرير، والخمر والمعازف"[1].

* ومن الظواهر الشائعة (عدم البركة في الأعمار) والأوقات، وقلة الإنتاج والشُّح والاستهانة بالدماء الإسلامية؛ حتى تكون أرخصَ الدماء في الأرض، "يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشُّح، ويَكثُر الهرَج، قالوا: وما الهرَج؟ قال: القتل، القتل"[2].

* ومن الظواهر (سيادة بعض المجرمين) السفهاء الذين ينتسبون إلى قريش، ويعتبرون هذه النسبة سندًا يملكون به الأمة الإسلامية، ويلعبون بحاضرها ومستقبلها، "هلكة أُمتي على يدي غلمة من قريش" [3].

* ومن الظواهر (الإعلان) بالخمور والزنا – تحت حماية القانون الوضعي السائد – وارتفاع كِفة الجُهلاء، وانزواء العلماء، (من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا)[4].

* ومن الظواهر بروز (النساء متبرجات) سافرات، مستعلنات بالإثارة، "أيما امرأة استعطَرت فخرَجت على قوم ليجدوا ريحها، فهي زانية"[5].

---

[1] البخاري، كتاب الأشربة.
[2] البخاري، كتاب الأدب.
[3] البخاري، كتاب الفتن.
[4] البخاري، كتاب العلم.
[5] رواه النسائي.

* إن هذه المرحلة هي المرحلة التي يقل فيها العمل ويكثُر الجدَل، وتقِل فيها الصراحة والوضوح، ويسود المَلق والنفاق ومظاهر الشرك المختلفة، ويكون اتباع الباطل وأهله هو الغالب، حتى على كبار العلماء والمفكرين؛ إذ إنهم يخضعون لضغوط المناصب والأموال.

- إن الناس جميعًا قد يسلمون بصحة أصولهم الفكرية لأُمتهم، لكن لا يوجد لديهم اليقين القلبي ولا الاستعداد للتضحية، إنهم أقرب إلى النفاق، وهم يريدون إيمانًا لا يدفعون له أي ثمنٍ، ولا يعوقهم عن أي مصلحة مادية أو معنوية[1]، وإلا فالصمت أو ممالأة الفاسقين والضالين هو الطريق، أو البحث عن مخرج لوضْعهم بإخضاع النصوص للباطل، وتلفيق آراء وتبريرات لوضعهم المُزري، وهكذا تظهر صور كثيرة من سيطرة العادات والتقاليد القديمة، واتِّباع هوى النفس، والتعلُّق باللذات الدنيوية، وعدم الانضباط والتذبذُب الدائم بين القول والفعل، وهذه الحالة أشار إليها الرسول - عليه الصلاة والسلام - بقوله: ((أربع مَن كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصلة منهنَّ، كانت فيه خصلة من النفاق، ولو صلى وصام، وزعم أنه مسلم: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمنَ خان، وإذا خاصم فجَر))[2].

ولئن كانت المرحلة الأولى - (وهي مرحلة الفساد الفكري والخلل العقدي) - تتميز بالضلال وظهور أئمة الفساد الذين يدعون الناس إلى الباطل، ويُبررون كلَّ منكرٍ، ويخضعون مبادئ الصراط القويم للمسار المنحرف بواسطة التأويل، فإن مرحلة الذنوب تتميز بأنها مرحلة انتشار

---

[1] محمد تقي الأميني؛ سنن الله في الرقي والانحطاط (بالأوردية).

[2] رواه مسلم.





وسائل الترف، وخضوع الأفكار للأشياء، وبروز العوامل المادية التي تهوي بالمجتمع إلى قاع الاستهلاك، حتى تصبح الثانويات والكماليات جزءًا أساسيًّا في حياته.

وفي هذه المرحلة يتبلَّد الإحساس، (وما تغني الآيات والنُّذر)، وتَنغمس القيادات والشعوب في ترف مُزرٍ، وتتحول العلاقة بين الحكام والمحكومين إلى (علاقة مادية مطلقة)، فما دام الحكام يوفرون للشعوب حاجاتها التي يطعمون فيها، فهي عنهم راضية حتى ولو دمَّروا الأخلاق، وكانوا يمشون سيرة مُعوجة، وفي مثل هذه الحياة المترفة يكثُر المفلسفون للفساد والمبررون له، وأكثر الفلسفات التي تنتشر تؤيد إشباع الغرائز، وتدعو إلى الانفتاح على الترف المادي، وتزيِّن للناس توفير كلِّ سُبل الحياة المادية، ولا مكان في هذه الحياة للآخرة، ولا لعالم القِيَم العُليا، ولا لدعوات التسامي والتضحية والإيثار والجهاد، بل تقف الماديات لتكون وحدها هي الأمل وهي القيم العليا، والغاية المَرجوَّة؛ يقول القرآن مصورًا هذه الحياة المادية بكلِّ أبعادها: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ} [آل عمران: 14]، ويقول القرآن أيضًا: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ: 34، 35].

إنها مرحلة (سيطرة الأشياء على القِيَم والأفكار)، وهي مرحلة التردُّد والتذبذب في كل شيء، فالحق قد يكون معروفًا بوضوح، لكن الأمة المنغمسة في الترف لا تعطي الحق إلا بعض





الكلمات في بعض المناسبات، أو تجعله أشبه ما يكون "بالشعارات"، لكنه بعيد عن عالم التطبيق.

إن ضغط "الأشياء" - وشتى ظواهر الترف - على العقول والسلوكيات، تحول دون تطبيق الحق المعروف، وإن السواعد المترفة تَضعُف عن تحمُّل واجبات الحق المعروف والواضح. وتظهر - في الطريق - فلسفات تحاول تبرير هذا الوضع، بل والنظر إليه على أنه (التقدم)، فتصبح المهرجانات والمباريات، والمسابقات والاحتفالات وما يصحبها من صور البذخ والإسراف واللهو، وتمجيد التافهين، تُصبح أكبر وسيلة للتعبير عن حالة (التحضر)، وقد يخدع بعض العقلاء أنفسَهم، فيحاولون مهادنة هذه الأوضاع أو الرضا بها وتبريرها، وتعلمنا مسيرة الرومان أن حضارتهم في عصر النشأة والقوة كانت تتميز بقلة الرغبات والحاجات، وكانت عقيدتهم قوية، لدرجة أن كل أفرادهم كانوا مستعدين للتضحية؛ لأن قيمة الحياة (مع قلة الحاجات والرغبات) تُصبح هينة، وترتفع أسهُم القِيَم العليا.

ومن خصائص هذا الوضع جفاف منابع الإرادة، وقلة الخيال السامي الذي يَحدو بُناة الأُمم عادة وصنَّاع الحضارات، وتنحصر الآمال في (اللحظة) وفي إطار (العمر المحدد)، الذي يراد الاستفادة منه في المتعة إلى أقصى الحدود، دون تفكير في المستقبل، حتى في المستقبل القريب، ودون تفكير حتى في الأخطار المحيطة بالأمة، والتي عادة ما تكون قوية جدًّا في مثل هذه الظروف.





(لنتذكر حالة ملوك الطوائف في الأندلس، وتربُّص نصارى الشمال الإسباني بهم، ولنتذكر قبلهم حالة الرومان كما صوَّرها جيبون أثناء سقوط الإمبراطورية الرومانية، وإحاطة الجرمان بها، ولنتذكر حالة معاصرة وهي حالة العرب والمسلمين الآن، وإحاطة القوى اليهودية والصليبية والشيوعية والهندوسية بهم).

* ومن السمات المميزة لهذه الحالة أيضًا: ظهور فجوة كبيرة في الطبقات، ففي ظل الترف تظهر طبقة تصل إلى تكديس معظم الثروة، ويبدو الفرق شاسعًا بينها وبين سائر المجتمع. وتظهر طبقة قادرة على أن تعيش بلا عملٍ طول حياتها؛ لأن تكديس الثروة ينتهي على أن هناك أجيالاً من أبناء أو أتباع المترفين تكون قادرة - ومقبلة - على الحياة المترفة دون جهد لعشرات السنين، أو لأكثر من ذلك.

ومثل هذه الثروة لا يمكن أن تمتلك بالعمل، بل تكون لها طرق من الحِيَل الشرعية المبغوضة أو غير الشرعية، وهي تَجنَح إلى الاكتناز أو التكديس، (وأكل الأموال بالباطل)، على غرار ما كان يفعله الأحبار والرُّهبان: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: 34].

ومن خصائص هذه المرحلة: ذَهاب رُوح الإخلاص والصدق، وفِقدان قوة الإرادة، واستسهال الطرق السريعة للوصول - صحيحة كانت أو غير صحيحة - ومع ذهاب الإخلاص والإرادة، يغلب الشكل على المضمون، ويصبح المجتمع مهتمًّا بالنواحي الشكلية على حساب





الجوانب الحقيقية، وحتى التديُّن يصبح شكلاً ومظهرًا أكثر منه حقيقة ومخبرًا، بل يصبح وسيلة لكسب الدنيا، وليس لإصلاحها، وتظهر النواحي الطائفية[1]، ولا تصبح العقيدة والعمل النافع هما ميزان الخير والشر، بل يصبح الانتماء الطائفي أو العرقي، أو الحزبي أو العنصري، أو الوطني هو الأصل، وهو يغفر لأصحابه كلَّ زلاَّتهم وإهمالهم.

– ومن آثار مرحلة الترف على الكيان الإنساني: تدمير العاطفة البشرية، والابتلاء بقسْوة القلب وغِلظته، وعندما تصل القلوب في أمة إلى مرحلة غلظة القلوب وقسْوتها، تفقد الأمة كثيرًا من وشائج الرحمة وأواصر التراحم، ولا يستجيب الناس للحق إلا على مطارق الموت لغرورهم وفساد قلوبهم، ويتجرأ السَّفِلة القُساة على المصلحين الهُداة، ولربما يبحثون لهم عن مثالب وتُهَمٍ يُسكتونهم بها، وينتشر العناد والمكابرة، ومظاهر الصراع الغليظة، ويتروي الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وتصبح (القوة) و(الثروة)، و(الأنانية الفردية) و(الأثرة)، هي القِيَم المسيطرة، ويضطر الضعفاء – وهم الغالبية – تحت ضغط هذه القيم الغالبة إلى المَلَق والنفاق، والكذب والسلبية.

وهذه هي قِيَم (الوهن) التي يدفع إليها هذا الوضع المزري، وتدفع إليها غزيرة (حب الدنيا وكراهية الموت)؛ كما ورد في حديث رسول الله[2]، فتسود المجتمع روح الاستهانة والاستكانة وكراهية العمل، ويصبح أفراد المجتمع (غثاءً كغثاء السيل) ولا ينجو أحد – إلا قلة قليلة – من هذه الروح العامة، حتى العلماء والمفكرون لا يتورَّع بعضهم عن تطويع الدين لتبرير الأحوال وتحريف الكَلِم عن مواضعه، وهكذا تصبح النظرة (المادية والنفعية والحسية)، هي سمة هذه

---

[1] سنن الله في التقدم والتخلف؛ محمد تقي الدين الأميني (بالأوردية).

[2] رواه أبو داود.



المرحلة البارزة، وهي الروح العامة المهيمنة على الحياة الفردية والاجتماعية، وتحاصر - في المقابل - الاتجاهات الأخلاقية والروحية، ولربما سَخِر الناس من أصحابها، أو نظروا إليهم على أنهم جاؤوا في غير زمانهم، أو أنهم الطبقة الدنيا في المجتمع.

وقد يدفع هذا بعض العاملين في حقول الخير إلى أن يتلمَّسوا لأنفسهم طرقًا في الحياة، تقرِّبهم من الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي يتمتع به أنصار النظرة المادية، وبهذا التلمس يفقدون مكانتهم النفسية والفكرية، وتُخلَع عنهم أَرْدِيَة القيادة الصالحة، ويَحار الناس بين قوى مادية قوية مستعلية، وقوى روحية ضعيفة مستخزية، وتصل الحضارة إلى مرحلة الانحطاط الفكري والأخلاقي والاجتماعي الشامل.

المرحلة الثالثة: مرحلة الانهيار:

في هذه المرحلة تبدأ الحياة الاجتماعية بالتعرض للضربات الداخلية والخارجية، نتيجة اختلال نسيجها الداخلي وتمزُّق كِيانها الفكري والنفسي.

لقد ظن الناس أنهم سيفلتون من الناموس الكوني، أو أنهم - لمجرد أنهم يهود أو نصارى، أو مسلمون - لن يتعرَّضوا للجزاء الحتمي، ولربما تمنَّوا أن يكونوا - وحدهم في سلسلة الحضارات - الحلقة التي لا تخضع للناموس الكوني، لكن حركة التاريخ تمضي - بقدر الله - إلى غايتها متجاوزة أمانيهم التافهة:

{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء: 123]، لقد أصبح البناء الاجتماعي هشًّا يقوم على أُسس فاسدة، فلا



أمل بالتالي في علاجه، بل لا بد من إسقاطه: {أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: 109]، ولقد اختل النسيج كله، واختلطت المعايير، وتقطَّعت خيوط الأخلاق: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [الرعد: 25]، فلم يبقَ إلا أن تتهاوى الضربات من الخارج ومن الداخل، وللإشارة إلى الضربات التي تهوي من الخارج، يقول الحديث النبوي الشريف: ((يوشك الأمم أن تَداعى عليكم الأُمم، كما تداعى الأكلة إلى قَصعتها))، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: ((بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاءٌ غثاء السيل، وليترعنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهَن))، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهَن؟ قال: ((حبُّ الدنيا وكراهية الموت))[1].

وأما الضربات من الداخل، فتتمثل في الفِتَن والمشكلات التي تقع بين المسلمين من داخلهم؛ حيث تتفتَّت وَحدهم، وينقسمون شِيَعًا وأحزابًا، تتوزَّعهم الأفكار والمذاهب والأطماع، وتُظهر لهم الأقليَّات المعادية للإسلام حقيقتها؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: ((لا تقوم الساعة حتى يكثُر الهرَج))، قالوا: وما الهرَج يا رسول الله؟ قال: ((القتل، القتل))[2]، ويصبح (القتل) هو الشيء الشائع في كل الأيام، حتى لا

---

[1] رواه أبو داود.
[2] رواه مسلم.





يدري الناس فِيمَ يَقتلون، أو فِيمَ يُقتلون، ويقول الرسول أيضًا: ((والذي نفسي بيده، ليأتينَّ على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتَل، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتِل))[1].

وهكذا تتعاون ضربات الداخل والخارج على إزهاق هذه الحضارة التي فقَدت شروط البقاء، وفقدت فيها الروح مكانتها، وضاع العقل، واختل الميزان في يد الإنسان، وانهارت الحقوق الآدمية للفرد، وطغت الجماعة - ممثَّلة في حزبٍ أو دولة - وأصبحت الأخلاق بلا رجال يحموها وأصبحت الحضارة - في مجموعها وفي عناصرها الأساسية - غير مؤهلة للبقاء!

د/ عبدالحليم عويس

[1] رواه مسلم.

